نشأة الأديان

اختلفت آراء العلماء في أصل الأديان ومصدرها فمنهم من اعتبر الدين كحادث طبيعي توصل إليه البشر بذات الطرق التي توصلوا بها إلى العلم والفلسفة .

وفريق آخر اعتبر الدين غريزة في النفس: واليك خلاصة الآراء .

الرأي الطبيعي : زعم قوم من المعطلين أن الفواعل الطبيعية وما حل بالانسان من كوارث الحدثان أثرت في الماضي على عقله البسيط وأرعبت تصوراته الجامدة وجعلته يصدق الخيالات ويعتقد بالأرواح، فالعقل البشري حسب طبعه إلا آلة مادية للشعور وهذا الشعور قاد الانسان إلى الاعتقاد بما يجهله مما غاب عنه إدراكه فعندهم أن الديانة صورة الخوف والهواجس .

وارتأى غيرهم أن مصدر الديانة جهل الانسان شرائع الكون وذهوله من تتابع الحوادث الطبيعية وسيرها على منهاج واحد فذلك أنه كل حادث من الحوادث الطبيعية وصدمها.

وقال أوغيست كونت : عبد الانسان الطبيعة إما لاعتقاده بأن بها روحاً له سلطة عليه . وإما لخوفه من قواها القاهرة، وعنده إن أصل الأديان ميل الانسان الأدبي، لهذا قامت الأديان وهو حقيقتها وبه حفظت ولولاه لزالت . قال لاسترج وتابعه غيره من الماديين أن الديانات بقية باقية من خرافات العصور الماضية أوجدتها الصدفة وتمسك بها الانسان لخوفه من المجهول وذلك لعدم معرفته نواميس الطبيعة .

وزعم هوم إنها حيلة من حيل الكهنة تسلطوا بها على البشر بواسطة التخرصات والتأويلات

وقال هيجل وتابعه ميل إن الديانة كبقية المعارف التي توصل إليها الانسان بالملاحظة والاختبار أوجدها جهله لأسرار الطبيعة وعدم اطلاعه عليها .

وقال ميترس Meinzise : أكرم الانسان الطبيعة وعبدها لخوفه من الظواهر الجوية وتعلق بها لاحترامه للفائدة والتجربة التي حصل منها على غذائه وتدرج من هذا إلى الاعتقاد أن بها روحاً نظير روحه فصدق الخيالات وعبد الأرواح وعن هذه الأسباب نشأت الأديان فالديانة بنظره عبادة قوة غير منظورة نتجت عن شعور عدم الارتضاء .

اما شليرماخير chleirmacheir فقال انها ناتجة عن اعتقاد الانسان بكونه متعلقاً بكائن لا يعلمه . ترجع هذه التعاليم والآراء إلى هذه المبادىء الثلاث .

اولاً — « ان مصدر الديانة الانفعال من الظواهر الجوية والخوف من الفواعل

الطبيعية لعدم معرفة الانسان لنواميس الكون وارجاع الاصاب لمسبباتها »

ثانياً — « إن الديانة صدفة حدثت عن مجرد الخوف والرهم لوقوف الانسان امام المجهول».

ثالثاً — إنها حيلة من حيل الكهنة موّهوا بها على العقول البسيطة حبًّا بالسلطة ورغبة بالمنفعة فصدّق الانسان التخيلات واعتقد بالخرافات لتهويلهم على مخيلته .

فلنبحث في كل حالة من هذه الأحوال الثلاث .

أولاً — نعم أنّ الفواعل الطبيعية والظواهر الجوّية أثرت في مخيلة الانسان وفي معتقداته فصوت الرّعود ووميض البروق وزمجرة الزوابع شغلت أفكار الانسان المتوحش وأرعبت قلبه وأثرت في تصوراته فاندهش من عظمتها وخاف من قوتها وحذر من مظاهرها وهاله أمرها فاعتقد أن قواها المنظورة وغير المنظورة عاملة به متسلطة عليه فارتبط بوجوده معها وتعلقت حياته بها فكان إذا أخصبت أرضه عاش رضيًّا واذا أجدبت مات ونتج عن ذلك أنه اعتقد بأرواحها وعبدها وقسمها إلى صالحة وشريرة تبعاً لمنافعها وأضرارها فأرواح الأمطار الشمس والحرارة مثلاً كانت في عينيه من القوى المحسنة إليه وأن ارواح الجفاف والبرد والمجاعات والامراض من الأرواح المضرة له فقال إنها شريرة . ومن ثمّ نتج عن ذلك الاعتقاد الميل إلى استرضائها لدفع أضرارها أملاً بالحصول على رضاها فقدم لها الضحايا وحباها بالعطايا وتقرّب إليها بالصلوات والرقص إلى غير ذلك من العبادات والطقوس إن هذا الرأي يفسر لنا بعض معتقدات القبائل المتوحشة لكنه وهمٌ فاضح وخطأ يتقدمه الواقع ويتضح فساده لدى درس النفس البشرية والاطلاع على الحقائق العلمية . لأنه لو لم تكن الديانة غريزة في النفس لما تأثرت من الفواعل الطبيعية فعاش الإنسان بغير ديانة . فالديانة إذاً غريزة في النفس ولو لم تكن كذلك لزالت وطوتها الأجيال الطوال ولم تبق مع العصور المتناهية في القدم، يؤيد هذا القول الاختبار الفسيولوجي ومنه نعلم أن علاقة النفس مع علة العلل هو ميلها إلى معرفة مصدرها فاستغاثة الانسان بالله هو يقين بوجوده وإيمانه بمقدرته ونقته بمراحمه .

فالإنسان في حالتي الحزن والمرض والضيق والخوف والضعف والخطيئة يستغيث بخالقه بتلك الذات السماوية الفائقة الإدراك . فلو لم يعتقد الانسان بالله لما طلب منه المعونة ولما كان له اتصال معه وعلاقة به . وتاريخ الأديان يثبت لنا ذلك . وصلات هذا البابلي وقد مضى عليها أربعة آلاف سنة توضح لنا حالة النفس الدينية بأجلى بيان . ومنها نطلع على أسرارها الخفية ونقف على ضعفها وقوتها فنرى أنها قد تغلبت على الفناء ونهضت من ظلال الموت لتخبرنا بفضل الرحمة .

إلهي إن آثاري عظيمة وخطاياي كثيرة قد صنعت شروراً كباراً وصغاراً لا أعداد لها ولا علم لي بها . فيا إلهي أيها السيد إن ساعة غضبك أدهشتني فكن مراعاك أحاطت بي وخلقتني فيا ربي وإلهي لا تبتعد عن عبدك إذا انحدر إلى الهاوية التي لا قاع لها مد يدك إليّ أنشني واحو آثاري وبدد خطاياي ذرها كالرماد مع الرياح فأحيا .

يرى المرء بهذه الصلاة صورة نفس الانسان التي شعرت بأصلها السماوي فطلبت المغفرة من الله والغفران . فالديانة كما قلنا هي شعور النفس بخالقها وميلها إلى معرفته بالاشتراك معه بالحق والمحبة لذلك أحب الانسان قريبه وعمل بما يقتضيه عفو الله ورضاه بهما وظهرت فكرة العدالة والرحمة وبهذا صار الانسان إنساناً له صفة امتاز بها عن بقية الحيوان ووجوده كانسان هو بقوة نفسه الأدبية أي بسلامة النفس واشتراكها مع الله بالحق ومحبتها معه بالمحبة . إن كل إنسان يميل بالطبع إلى التعبد لمعبود منظوراً أو غير منظور وهذا ما يسمونه بالحاسة الدينية وهي غريزة غير عرضية لوجودها في جميع البشر في حالتي الرقي والانحطاط

إذا قلبنا صفحات التاريخ واطلعنا على أخبار الأمم القديمة والحديثة لا نجد شعباً بدون ديانة حتى إن وجود قوم بدون نطق ليس بأبعد من وجود قوم بعيدين عن الفكرة الدينية والمعتقدات الروحية . وما قال به بعض السياح من الذين جابوا الأماكن المجهولة وعاشوا بين البرابرة من أن بعض القبائل المتوحشة بلا ديانة وليس عندهم عبادة ظهر لدى الفحص والتحقيق إنه كان خطأ . ومن يبحث أحوال الشعوب قديمها وحديثها يحكم حكماً قاطعاً إنه لا يوجد شعب واحد خالٍ من الاعتقاد بروح من الأرواح أو بإله من الآلهة وهذا الأمر كان معروفاً عند فلاسفة اليونان وقد بنوا عليه نتائج جوهرية . فالديانة مأروسة في النفس وهي من مطالبها ولا يمكن صرفها إلى غير ذلك من الأغراض مهما حاول المدعون فهذا الأمر قضية أولية لا يمكن نقضها

ثانياً — إننا لو دخلنا إلى أعماق النفس البشرية وتعمقنا في البحث بمطالبها واطلعنا على أسرارها ولاحظنا ميولها لعلمنا إن الديانة حاسة غريزية في النفس لم تنتج عن الخوف من المجهول كما يزعمون ولا عن الوهم بما خفي من الأمور كما يتوهمون .

فلو إنها حدثت عن صدفة كحادث من الأمور العرضية ولو كانت نتيجة الخوف والوهم لنبذتها النفس كما نبذت أشياء كثيرة من الأمور المجهولة . إننا نرى بالواقع أناساً من أصحاب العقول السامية والنوابغ الذين اشتهروا بين البشر وقادوا الانسانية إلى العمران والرقي كانوا متدينين وغيرهم من الجهلة كانت حاساتهم الدينية ضعيفة فلو صح ما زعموا من أن أصل الديانة الخوف وعدم المعرفة لنبذها عقلاء القوم وتمسك بها الجهلاء . وبالواقع

نرى عكس ذلك ونرى ان عدد المتدينين من العقلاء أكثر من عددهم بين الجهال. أخيراً لو كان الخوف علة وجود الآلهة لما رأى فيها الانسان صورة الخير العام. فجميع الأديان التعليمية والراقية علمت أن الآلهة أوجدت الواجبات على البشر وانها هي التي أمرت الانسان بعمل الخير وبالابتعاد عن الشر وعلمت أيضاً أنها هي التي تدفع عنه المضرات وتهبه الخيرات من عيش ورزق وإنها هي التي خلقت العالم وأوجدت الحياة. ولو اعتقدنا أن هذه الفكرة ظهرت حينما ارتقى الانسان وصارت له حياة معنوية لو صح ذلك لما رأينا الضمير الصحيح تعتقد ذات الاعتقاد وتنسب إلى آلهتها الخلق والفضل والبركات. ولو لم يكن كذلك لظل الانسان مقتصراً في عباداته على طريق المبادلة بينه وبين الآلهة ولم يعتد الواجب المفروض عليه من قبل الرحمان، إن فكرة الخوف لم تكن لتتمكن من نفس الانسان لو لم تكن طبيعة نفسه دينية. فالسبب الذي عمل بها في الماضي يعمل به الآن بعد أن زال الخوف من فكر الإنسان. وإننا إذا وجدنا في بعض الأديان قضايا هادئة وخرافات كثيرة متنوعة متشعبة ناشئة عن خوف الإنسان في الماضي من الفواعل الطبيعية والظواهر الجوية فإن أصل تلك المعتقدات خارج عن أصل الديانة الطبيعي.

ولو كانت الديانة صدفة عرضية لتركتها النفس البشرية حينما زال السبب لها ولما شملت جميع الخلائق والأمم وتاريخ جميع الشعوب شهادة لا يمكن إنكارها.

ولو لم تكن الديانة في النفس لتركتها النفس فزالت كبقية الصدف العرضية لأن العرض لا يدوم ولا دوام إلا للجوهر، وهل يقدر الإنسان أن يحافظ على خلق بعيد عنه وصفة ليست منه إن هذا من المسلمات البديهية.

ثالثاً — لو أنهم الكهان والحكماء موهوا على الأذهان وضللوا العامة بالأديان ليتسلطوا عليها. لو أنهم اخترعوا الأرواح والآلهة ووضعوا أصول الأحكام الدينية ورسوم العادات ليؤثروا بذلك في المخيلة لما وجدت ديانة على وجه الأرض لأن التاريخ يدلنا على أن الأديان وجدت قبل الحكماء والملوك والكهنة. قبل حياة الانسان الاجتماعية، أي حينما كان متوحشاً طريداً شريداً يأوي إلى المغاور ويسكن في عقوق الصخور. فلو كانت الديانة حيلة من حيل الكهنة لما وجدت ديانة لأن مجرد وجود الكهنة يلزم وجود ديانة قبلها. ولو لم توجد في النفوس البشرية تلك الخاصة الغريزية لما وجدت الفكرة الدينية في عقول الكهنة ولولا ذلك الميل السابق إلى الديانة لخابت آمالهم من تسلط أوهام بعيدة عن الطبيعة البشرية، ولما دام هذا الخداع مدة أجيال طويلة متناهية في القدم، ولما انتشرت الأديان في جميع القبائل والأمم.